المحاضرة السادسة: مستويات التحليل: الانتقاء

تُركز محاضرتنا هذه على دراسة النقطة المحورية التي يلتقي فيها نظام اللغة الثابت بـ فعل الكلام الحيوي، وذلك عبر مفهوم الانتقاء. سنغوص في مختلف المستويات اللسانية — بدءاً من أصغر وحدة صوتية وحتى أعمق الدلالات — لنرى كيف يمارس المتكلم عمليتي الاختيار الواعي وغير الواعي من بين الإمكانات اللغوية المتاحة له.

أولا- مفهوم الانتقاء في الدرس اللساني الحديث

يُصاغ مفهوم الانتقاء بشكل رئيسي ضمن نظرية عالم اللسانيات فرديناند دي سوسير، ويُعرف بـ المحور الاستبدالي، والذي يقع ضمن ثنائية التركيب والاستبدال والتي صاغها سوسير في شكل محوران متعامدان الأفقي التركيب، والعمودي استبدال.

المحور الاستبدال (الانتقاء) :هو المحور الذي يمثل مجموع الوحدات اللغوية المتاحة للاختيار في نقطة معينة من السلسلة الكلامية. يختار المتكلم وحدة واحدة من هذه المجموعة لوضعها في التركيب.

مثال :عند قول كلمة (قَامَ)، ينتقي المتكلم هذه الكلمة من مجموعة الأفعال المتاحة: (قَامَ، جَلَسَ، رَقَدَ، رَكَضَ، إلخ.

-**المحور التركيبي (التعاقب) :**هو المحور الذي يمثل ترتيب الوحدات المنتقاة في سلسلة الكلام. الانتقاء يؤدي إلى التركيب.

إن عملية الانتقاء هي المرحلة الأولى من الإنجاز اللغوي، وهي عملية ذهنية واعية أو لاواعية يختار فيها المتكلم وحدة لغوية من مخزونه المعرفي أو قاموسه اللغوي.

ثانيا-الانتقاء في التراث اللغوي العربي

على الرغم من أن اللغويين العرب القدماء لم يستخدموا مصطلح "الانتقاء" بمعناه اللساني الحديث (المحور التعويضي)، إلا أنهم تناولوا جوهر العملية من خلال مفاهيم عميقة:

- **علم النحو (المستوى التركيبي):**

جواز الوجهين :النحاة كثيراً ما يذكرون أن المتكلم يختار بين إعرابين أو تركيبين أو موقعين لجزء من الجملة، وكلا الاختيارين صحيح نحوياً لكن له دلالة مختلفة (مثلاً: جواز تقديم وتأخير حالات معينة).

القياس والاستعمال :يمثل القياس القاعدة النظامية (ما هو متاح للجميع)، بينما يمثل الاستعمال الفعلي للمتكلم الانتقاء من هذا القياس.

- **علم الصرف (المستوى الصرفي):**

الاشتقاق والقلب :دراسة الأوزان والصيغ المختلفة من جذر واحد هي في جوهرها دراسة لـ الاختيارات الصرفية المتاحة لتوليد المعاني.

- **علم البلاغة (المستوى التداولي):**

-مطابقة الكلام لمقتضى الحال :هذا المفهوم هو الترجمة الأدق والأعمق لعملية الانتقاء في سياق التواصل. فالبليغ هو الذي ينتقي الأسلوب واللفظ والتراكيب التي تتناسب مع حال المخاطب والزمان والمكان، وهذا يمثل اختياراً واعياً من بين الأساليب المتاحة.

-الفروق الدلالية :دراسة الترادف و"الفروق" بين الألفاظ (مثل ما فعله الجرجاني وغيره) كانت تهدف لتوجيه المتكلم نحو انتقاء اللفظ الأدق والأجمل لتحقيق الغرض المنشود.

ثالثا- الانتقاء كمفهوم لساني:

1. المحور التعويضي والانتقاء:

تُعتبر عملية الاختيار اللغوي، التي سمّاها دي سوسير المحور التعويضي، بمثابة المخزون الذهني الواسع الذي يضم كل الوحدات اللغوية الممكنة. عندما يتحدث الإنسان، فإنه لا يفعل شيئاً سوى أنه ينتقي وحدة واحدة من هذه المجموعة العمودية الهائلة لتناسب سياقه، مثلما نختار الجذر الصرفي المناسب (كتب، أو شر ب) من بين آلاف الجذور، أو نحدد حرف الجر الأنسب

(إلى، أو عن، أو في) لتحديد علاقة ما. في النهاية، هذا الانتقاء ليس عشوائياً، بل هو محكوم بقواعد اللغة التي تضمن أن يتم تفعيل إمكاناتها الكاملة بشكل صحيح ومناسب.

2. علاقة الانتقاء بالتركيب:

تبدأ العلاقة بين الاختيار اللغوي والتركيب عندما ندفع بالوحدة التي انتقيناها للتو إلى المحور الأفقي، حيث تبدأ عملية البناء الفعلي للجملة. هنا، تُرتّب هذه الوحدة جنبًا إلى جنب مع باقي الكلمات المختارة، وفقاً لقواعد التركيب الصارمة التي تملي علينا التسلسل الصحيح، كأن نضع الفاعل قبل المفعول به أو الفعل في موضعه المحدد. باختصار، كل جملة ننطق بها هي نتيجة سلسلة من القرارات العمودية المتتالية (الانتقاء)، تتبعها عملية تنظيم أفقية دقيقة (التركيب) لتشكيل خطاب متماسك ومفهوم.

3. الاختيار في نظرية تشومسكي (القدرة والأداء):

يرى تشومسكي أن عملية الانتقاء أو الاختيار هي المظهر العملي لـ أداء المتكلم للغة؛ أي الاستخدام الواقعي والفعلي لها. لكن هذا الاختيار ليس عشوائياً البتة، بل هو متجذّر في القدرة اللغوية الكامنة، وهي مجموعة القواعد النحوية والصرفية التي يختزنها العقل البشري للمتحدث الأصلي. فالإنسان يختار المفردات والتراكيب من هذا المخزون المعرفي العميق (القدرة)، ثم يحولها إلى كلام مسموع (الأداء). بهذا المعنى، تكون القدرة هي الإطار العام الذي يحدد لنا ما يمكن أن نختاره، بينما يظل الأداء هو تجسيد هذا الاختيار على أرض الواقع.

رابعا-المستويات اللسانية والانتقاء

1. المستوى الصوتي (الفونولوجي/علم الأصوات الوظيفي)

ويكون باختيار أصوات معينة من مجمل الأصوات الممكنة في الجهاز النطقي لتكون فونيمات لغوية مميزة في اللغة العربية (اختيار الفونيمات التي تشكل التعارضات).

وقد أدرك علماء العربية الأوائل، مثل سيبويه في "الكتاب"، جوهر عملية الانتقاء الفونولوجي من خلال دراساتهم الدقيقة. فقد اهتموا اهتماماً بالغاً بـ مخارج الحروف وصفاتها (كالجهر والهمس والشدة والرخاوة)، لا كغايات وصفية فحسب، بل لتحديد الخصائص التي تميّز كل صوت عن الآخر وتجعله وحدة وظيفية. هذا الوصف الدقيق كان يهدف عملياً إلى تقنين مجموعة الأصوات التي ينتقيها المتكلم العربي لتغيير الدلالة، وهو ما يطابق مفهوم التعارض الفونولوجي في اللسانيات الحديثة.

2. المستوى الصرفي (المورفولوجي)

وذلك باختيار الصيغة الصرفية (الأوزان والأبنية) من بين الصيغ المتاحة لاشتقاق الكلمات (مثلاً: الانتقاء بين أوزان اسم الفاعل: فاعل، فَعَّال، فَعُول... إلخ، كل اختيار يعطي دلالة إضافية.

3. المستوى التركيبي (النحوي)

باختيار العناصر وتحديد مواقعها في الجملة وفق القواعد النحوية (اختيار المسند والمسند إليه، والمتممات، والقيود الزمنية، إلخ). ويبرز هنا مفهوم الاستبدال والتعاقب أو المحور الأفقي.

4. المستوى الدلالي (السيمانطيقي)

بانتقاء اللفظ المناسب من بين المترادفات أو الألفاظ المشابهة لتأدية معنى معين (مثلاً: الانتقاء بين "رأى"، "شاهد"، "نظر"، "أبصر").

5. المستوى التداولي/البلاغي

باختيار الأسلوب الأمثل للخطاب (الاستعارة، التشبيه، المجاز، التكرار، الحذف، التقديم، إلخ) لتحقيق غاية تواصلية محددة.